علم النفس والإسلام

للدكتور محمد مظهر سعيد

عميد الفلسفة وعلم النفس والتربية

مقدمة ..

ثلاثون عاما قضيتها في علم النفس ، دارسا ومدرسا ، باحثا ومنقبا ، كاتبا ومؤلفا ، كنت فيها مندمجا في زمرة علماء الغرب ، الذين وضعوا أسس علم النفس الحديث ، متأثرا خطاهم ، ناهجا منهجهم ، ولا على وقد تلقيت عنهم هذا العلم .

وكنت أرجع اليهم ، وأبحث معهم ، وأكتب بلغتهم ، وأنشر نظرياتي الجديدة في مجامعهم ، فيتناولونها في مجلاتهم ومؤلفاتهم ، ويناقشونها في مؤتمراتهم .

ثم شاء حسن الطالع أن تظهر كليات الجامعة الأزهرية سنة ١٩٣٠ وأن أندب لتدريس هذا العلم في كلية أصول الدين في يوم أن فتحت أبوابها لطلاب علوم الدين ، ثم في كلية اللغة العربية وأقسام التخصص . فكان طبيعيا أن أتصل بالثقافة الاسلامية . وأن أحاول ما استطعت أن أقرب بينها وبين هذا العلم الحديث ، وكان هذا توجيها جديدا لي أعده من باب التوفيق . فقد انتهيت منه الى أمرين ، كلاهما جد خطير . أولهما : أن في القرآن الكريم والحديث الشريف وآثار السلف الصالح معينا لا ينضب للدراسات النفسية ، وموردا لا ينفد للحقائق النظرية والطرائق العملية . وثانيهما : أن علم النفس هو أساس دراسة الدين على النحو المثمر المستنير .. وقديما قال ابن مسكويه : « ان معرفة ماهية النفس ، وسبب وجودها وغايتها وقواها .. وما يبلغها كمالها أو يعوقها عنه ، أساس تحصيل الخلق الجميل ، وهذا ماكدوجل زعيم المحدثين الغربيين في علم النفس الاجتماعي يقول : في هذا العصر الذي تشتبك فيه مصالح البشرية وتلتقي لا نجد في مختلف الدراسات والعلوم والفنون شيئا أكبر خطرا ، وأجدر بالدرس من علم الدين والنفس ، فهما أكثر العلوم شبها وأقواها اتصالا ، وفيهما مفتاح

المسائل التى شغلت عقل الانسان منذ أن وجـــد - من أنا وماذا يجب أن أعمل ، وفيما أؤمل ؟ .. فاذا فهم الانسان دينه فى ضوء علم النفس أمكنه أن ينقذ نفسه من الضلال ، وأن يعيد بناء الانسانية التى أوشكت أن تنهار على أساس قوى متين ..

الطبيعة البشرية :

يرى علماء النفس ما رآه أفلاطـون من قبل ، أن كل تصرفات الانسان وأعماله الجسمية والعقلية وانفعالاته وحالاته الوجدانية ترمى الى الوصول لغرض خاص يصلح له .. ويمكنه من الصراع فى معترك الحياة والبقاء ، سواء أشعر بهذا الغرض فى أثناء التصرف أم لم يشعر به .. والله لم يمنح الانسان سائر قواه عبثا ، وانما لحكمة سامية ، قد لا تدركها بصيرته ومن ثم تكون حياته كلها غائية ..

ولما كانت ظروف الحياة البشرية معقدة غاية التعقيد ، وحاجات النـاس متعددة ، ورغباتهم متنوعة ، فان هذه الحياة تقتضى لمواجهتها أن تكون لدى الانسان طائفتان كبيرتان من هذه الاستعدادات ، أولاهما قوى فطـــرية ، الحياة القاسية المعقدة .. والتصرف فى كل موقف بما يناسبه . وهناك لدى الانسان طائفتان كبيرتان من هذه الاستعدادات ، أولاهما قوى فطـرية ، ركبت فى خلقته وطبعه ، وورثها عن نوعه ، كالبحث عن الطعام والهـرب من الخطر ، والدفاع عن النفس والتناسل . وهذه تمتـــاز بأنها عامة عند جميع أفراد النوع الانسانى ، ثابتة أصيلة فى النفس ، لا يتغير جوهـرها بتغير الظروف والاحوال ، وان تغيرت مظاهرها ، لأنها ضرورية لاستمرار الحياة ، ولا يمكن الاستغناء عنها بحال أو الوقوف فى طريقها أو منعها .. وهناك طائفة أخرى يكتسبها الانسان من بيئته التى يعيش فيها ، بالتعليم أو التلقين ، والارشاد والتعليم ، كالتكلم بلغة ما أو الكتابة والرســـم . وهذه تختلف بالضرورة من فرد لآخر ، وقد تتغير عند الفرد الواحد بتغير ظروفه ، فما يكون ضروريا منها فى وقت ما ، قد لا يكون مطلوبا فى وقت آخر ، ولذلك تقوى بالمران وتضعف بالترك .

والانسان فى أول طفولته يتصرف كالحيوان مسوقا بهذه الغرائز الفطرية ولكنه مع هذا مرن قابل للتعلم ، يستفيد من خبرته وتجاربه والظروف التى تمر عليه ، فيستطيع أن يعدل فى سلوكه الغريزى الغشوم العنيف ، ويسمو به ، ويخرج من دائرة الحيوانية الى مستوى الانسانية ذات المثل

العالية والمبادىء السامية ، فى حين يبقى الحيوان على فطرته ، لأن غرائزه ثابتة ، وتصرفاته على نمط واحد .

وفى هذا يقول قطب الدين الشيرازى : للنفوس البدنية شيئان ، فاعلى وغائى . أما السبب الفاعلى فهو أن أول نشأة للنفس هى هذه النشأة الطبيعية والبدنية ، ولها الغلبة على النفوس ما دامت متصلة بالبدن منصرفة عنه . فتجرى عليها أحكام الطبيعة البدنية . وكذا ارادة الله تعلقت بالبدن بايداع الألم والاحساس به فى غرائز الحيوانات ، والخوف فى طباعها ، مما يلحق بذواتها من الآفات العارضة والعاهات الواردة عليها حثا لنفوسها على حفظ أبدانها وكلاءة أجسامها وصيانة هياكلها من الآفات العارضة لها ، اذ أن الأجساد لاشعور لها فى ذاتها ، ولا قدرة لها على جر منفعة أو دفع مضرة . فلو لم يكن الألم والخوف فى نفوسها لتهاونت النفوس بالأجساد وأسلمتها الى المهالك .

ويقول ابن ماجد : الحيوان غير الناطق انما يتقدم فعل ، ما يحدث فى النفس البهيمية من أفعال ، والانسان قد يفعل ذلك ، كما يهرب من تقويم ومثل ما يكسر عودا خدشه ، لانه خدشه فقط ، وهذه وأمثالها أفعال بهيمية فأما من يكسر عودا لئلا يخدش غيره ، أو فى روية توجب كسره فذلك فعل انسانى . فالفعل البهيمى هو الذى يتقدمه فى النفس الانفعال النفسانى فقط ، مثل الغضب أو الخوف وما شاكله — أما من يفعل الفعل لأجل الرأى والصواب ، ولا يلتفت الى ما يحدث فى النفس ففعله بأن يكون الهيا أولى من أن يكون انسانيا .

والانسان بفطرته يدرك المواقف التى تتعرض فيها ذاته أو ملكه أو أولاده وأقاربه للخطر ، من الحيوان المفترس والعدو المفاجىء والنار والظلام والشىء المجهول ، فيخاف ويجرى أو يختفى ، أو يصطنع أية وسيلة للهرب لينجو من هذا الخطر ويبتعد عنه ، وقد أمر الانسان بذلك ، فقال تعالى : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** »

ثم هو يغضب ممن يعتدى عليه ويقف فى طريق رغباته أو يعطل له مصلحة ، أو يهاجمه فى شرفه وعرضه ودينه وعقيدته ويقاتله ليبعده أو يقضى عليه ويمحو أثره ، حتى لا يكون فى استمرار بقائه خطر عليه . وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال : « **يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** » . وقال تعالى : « **انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك الصادقون** . وقال سبحانه : « **ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا**

لقتال أو متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير » . « **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما** » .

وفى الأحاديث الشريفة : « جاهدوا الكفار بأيديكم وأنفسكم » . و « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » . « ضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه الا جهاد فى سبيله وايمان به وتصديق لرسله ، أن يدخله الجنة أو يرجعه الى منزله الذى خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو نتيجة » .

ومن طبيعة الانسان أن يخضع لمن هو أقوى منه بدنا أو عقلا ، أو أقدر فنا ، أو أغزر علما ، أو أصلح خلقا ودينا ، ولذلك يخضع لأوامر أبيه وولى أمره أولا ، فأستاذه ومربيه ، ثم رؤسائه وحكامه وأئمة دينه . وقد طلب الله تعالى طاعته وطاعة رسوله ، وسن أصل حياة العباد ونظام المجتمع فى هذه الطاعة فقال : « **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » . وقال تعالى : فى طاعة الوالدين : « **ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما** » . وقيل فى طاعة العلم : « من علمنى حرفا صرت له عبدا) .

ثم هو ميال بطبعه الى السيطرة على من هو أضعف منه ، والتسلط عليه بالقول والفعل . الى حد الاملاء وفرض الرأى . وفى هذا يقول الامام المراغى « الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد يجعل لنفسه حق ابداء الرأى والسبق به وحق المخالفة » .

والانسان مولع بالاستطلاع كنف الشىء الغامض وكشف المجهول وتعرف الغريب . ولولا هذه النزعة ما استطاع أن يكتسب الخبرة والمعرفة ويضع النظريات والقوانين ، ويتقدم فى العلم والاختراع ، ولما وصلت الانسانية الى ما وصلت اليه الآن من ثقافة وحضارة .

والقرآن الكريم يحث الناس على التدبر فى آيات الله والتأمل فى خلقه ودراسة الكون وظواهره ، والأمم وتاريخها وأحوالها ، والاستطلاع عند ابن سينا وابن خلدون هو أساس رقى الانسان وتعلمه ، والرازى يقول : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . وابن ماجد يطالب الانسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . وقد جعل ابن طفيل بطل قصته المعروفة « حى بن يقظان » يصل بحسه ومشاهدته وتأمله واستطلاعه الى حقائق الكون وفلسفته دون أن يتعلم ذلك من أحد .

والانسان مدنى بطبعه ، ذؤوب على الاتصال بأبناء جنسه ، يجد الأنس

والاطمئنان فى اختلاطه بهم ، والوحشة والقلق فى ابتعاده عنهم ، ويبتغى أمور معاشه وسعادته فى التعاون معهم ويكتسب خبرته وثقافته فى الاحتكاك بهم • والله تعالى يقول : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » •

وحب الصغار الأطفال والحيوان والنبات طبيعى فى نفوس الآباء مما تضرب به الأمثال • وقد روى الميدانى : « ان رجلا تزوج امرأة وله أم عجوز •• فقالت الزوجة للرجل ـ لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز هنا • فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلا حتى أتى واديا كثير السباع فرمى بها ، ثم تنكر لها فمر بها وهى تبكى ، فقال ـ ما يبكيك يا عجوز ؟ قالت ـ طرحنى ابنى ها هنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد • فقال لها ـ تبكين له وقد فعل بك ما فعل ، هلا تدعين عليه • قالت وأرسلته مثلا ـ تأبى له ذلك نبات البنى ـ أى عروق قلبى » •

والانسان ينفر بطبعه من المناظر والطعوم والروائح الكريهة ويتقزز لرؤيتها ويشمئز منها ، فيندفع للابتعاد عنها ونبذها ، وفى الحديث : فر من المجذوم فرارك من الأسد •

والشهوة التى تصاحب الغريزة الجنسية من أقوى الدوافع التى تتملك قياد الانسان ، فاذا جمحت به دفعته الى التهلكة ، واذا استعان عليها بالصلاة والصوم والرياضة والتأمل والتصوف فقد نجا • والله تعالى يقول : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** » •

هذه وغيرها من أنواع السلوك الغريزى هى الأساس الذى تقوم عليه وبه حياة الانسان الفطرية ، وبغيرها لا يمكن بقاء النوع مفضلا على رقية وتطوره وتمدينه •

ولو تعمق الانسان فى دراسة آثار الغرائز ، ونظر الى ما هو أبعد وأعمق من المواقف الغريزية الطارئة والتصرفات المؤقتة ، لوجد لكل غريزة أثرا هاما فى سلوك الفرد والجماعة • فالخوف المعقول أساس الدين والتقاليد والتشريع والقانون والنظم الاجتماعية والاقتصادية • والغضب الطبيعى أساس الكرامة والوطنية والدفاع عن المبادىء السامية • والسيطرة والخضوع أساس الحكم والطاعة والاحترام • والنفور من الشىء الكريه أساس الذوق السليم والفنون الجميلة والتقدم فى أساليب المعيشة • والاستطلاع أساس العلم والمعرفة • فهى من هذه الناحية مصدر خير للفرد والجماعة • ولكنها قد

تتطرف لظروف طارئة ، أو للجهل وفساد التربية ، وعشرة السوء ، فتخرج عن حدها الطبيعي وتنقلب شرا على الفرد المتطرف ذاته وبالتالى على الجماعة. فالسيطرة طبيعية لمن تتوافر فيه القوة أو العلم أو أية ناحية أخـــرى من نواحى شخصيته التى يمتاز بها عن غيره ، ولكن تطرفها يجعلها ستبدادا ممقوتا أو غرروا مرذولا . وفى ذلك يقول الله تعالى : « **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير حق** » . « **كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار** » . « **لقـد استكبروا فى أنفسهم وعتـوا عتوا كبيرا** » وفى الأحاديث الشريفة : « لا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة من كبرياء » و « ثلاث مهلكات ـ شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » و « لينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان » .

والقتال طبيعى ولكن من الشر أن يقاتل الانسان من لم يعتدى عليه . وقد أقر المشرع الشريف مبدأ : « **العين بالعين والسن بالسن** » والشر بالشـــر والبادى أظلم » . ومع هذا أشار بالعفو عند المقدرة وكظم الغيظ والعفو عن المسىء . فقال تعـــالى « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروا وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين** » . وقال : « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ألا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** » .

ونهى الدين كذلك عن التحرش بالناس بدون سبب ، وقتـــال المسلمين بعضهم لبعض . فالمؤمنون « **أشداء على الكفار رحماء بينهم** » . وفى الحديث الشريف : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

والاستطلاع اذا تطرف صار تجسسا ممقوتا على الناس ، وكشفا لما يجب أن يستر من أموالهم وأمورهم . قال الرسول الكريم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعربيته » . وقال عليه الســـلام لمعاوية : « انك ان تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » . وقال أبو بكر رضى الله عنه : « لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ولا دعوت اليه أحدا حتى يكون معى غيرى » .

(يتبع) (محمد مظهر سعيد)

* * *